آفاق نجفية

مجلة فصلية مصورة تعنى بالدراسات والبحوث الدينية والمعاصرة

المتخصصة بشؤون النجف الأشرف

١

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

المقتطف من التاريخ الحضاري والفكري والروحي لمدينة النجف الأشرف

الدكتور: جليل العطيّة*

تشير أحدث التنقيبات الأثرية إلى ان المنطقة التي تضمها مدينة النجف ترجع إلى عصر (البلايستوسين المتوسط) وما بعده من العصور حتى العصر الحجري القديم أي قبل أكثر من مليون سنة . ويرى الجيولوجي العراقي (جعفر الساكني) في دراسة مهمة له[1] أن مجرى الفرات الحالي حديث نسبياً، وهو يفترض ان النهر غير مجراه، وقد استند إلى دراسة أجراها Vote سنة ١٩٥٧م أعطى فيها وصفاً لمجرى نهر لم يذكر اسمه يقع إلى الغرب من مجرى الفرات الحالي بين الرمادي والنجف، حيث يقول ما نصه: «هناك مجرى لنهر قديم ومهم جداً كان يربط بحيرة الحبانية ببر النجف ومن مجرى الفرات الحالي قرب النجف وذلك خلال بحر النجف وطار السيد ومنخفض أبي دبس»[2].

أما وليم ولكوكس فقد بيّن في خارطته (أنهر جنّة عدن السامية) بأن هناك مجرى قديماً يبدأ من الرمادي وينتهي عند الكوفة بعد أن يمر بما يُشبه البحيرات وقد أسماه بنهر فيشون .

وقامت شركة الاستكشافات النفطية العراقية بدراسة بواسطة الأقمار الصناعية لمناطق النجف، كربلاء والرمادي تبيّن منها ان مجرى النجف يشكل لساناً غامق اللون يمتد باتجاه شمال الغرب نحو طار السيد ولمسافة بحدود ٢٥كم، وهذا اللسان بدوره يشكّل امتداداً طبيعياً للسهل الرسوبي المتكون من مترسبات نهري دجلة والفرات ويمكن الاستنتاج بانّ الفرات في العصور السحيقة كان يجري باتجاه هيت، منخفض الرزازة، طار السيّد، بحر النجف، جنوب النجف[1].

---

* كاتب وباحث ومحقق عراقي ــ فرنسا.

عن النجف الاشرف، إسهامات في الحضارة الإنسانية ١/ ٢٣٠ ــ ٢٤٥.

(١) انظر: نافذة جديدة على تاريخ الفراتين في ضوء الدلائل الجيولوجية والمكتشفات الآثارية لجعفر الساكني، بغداد ١٩٩٣، ص:٥١-٦٢.

(٢) مجلة سومر: المجلد الثامن، لسنة ١٩٥٧م.

النجف[١].

ولاحظ عالم الآثار الامريكي Gibson في دراسة نشرها سنة ١٩٧٢م أنّ هناك نهراً عباسياً كان يسمى (نهر سعيد) يأخذ مياهه من الجهة الغربية لنهر الفرات الحالي عند مدينة هيت، والظاهر أن هذا النهر كان من بقايا مشروع اروائي يرجع إلى القرن الرابع الميلادي يسمى (خندق سابور)، وقد أعيد حفره في زمن العباسيين حيث كان يجهز الماء إلى خطّ الحصون في الصحراء الرملية (مناطق غرب الفرات الحالية) ومزارع النجف الحالية قبل أن يفرّغ مياهه في الخليج قرب البصرة[٢].

وأوضحت صور التقطتها (شركة الاستكشافات النفطية العراقية) بالأقمار الصناعية وجود مجار واسعة ومطمورة في المنطقة الواقعة في جنوب السماوة الحالية حتى جنوب الناصرية، وانّ هذه المجاري قد تكون قديمة حيث يمكن أن تربط مع مجاري الفرات القديمة بين هيت والنجف لتكوين مجرى كامل ولكنّه تقريبي جداً يبدأ من هيت وينتهي جنوباً قرب غرب الناصرية.

يعتقد (الساكني) أن جفاف مجرى الفرات القديم وتحوله يرتبط بجفاف مجرى هيت- النجف وهذا يشمل مأخذ النهر قبل جفافه، وأن جفاف مجرى هيت وتحوله أدى إلى جفاف المجرى جميعه وتحوّله إلى مجرى جديد آخر وبذلك يكون الفرات قد دخل في طور جديد سُمّي بالطور الثاني : لكننا لانعرف الحقبة الزمنية التي مرّت على بقاء نهر الفرات (في مجرى الكرمة) لكوننا لانعرف الحقبة التي بدأ يتحول فيها الفرات من مجراه القديم إلى مجرى الفرات الحالي وذلك يحتاج إلى دراسات مفصلة[٣].

قال (الخليل بن أحمد الفراهيدي) في كتابه «العين»: النَجفَةَ ـ بالتحريك - شبه جدار وليس بعريض وغار منجوف، هو الذي يُحفر في عُرضه .

وقال (ابن فارس): ومن الباب: النجيف من السهام: العريض، ونجفتُ السهمَ : بريته وكذلك أصلحته، وسهم منجوف ونجيف، وغار منجوف: واسع . وفي (لسان العرب): النّجَف: أرض مستديرة مُشرفة والجمع: نُجَف ونُجاف .

---

(١)حضارة العراق: الجزء الأول، ص:٤٩.

(٢) Page:116،Gibson The City and Area of Kish

(٣) نافذة جديدة على تاريخ الفراتين في ضوء الدلائل الجيولوجية والمكتشفات الآثارية لجعفر الساكني، بغداد ١٩٩٣م، ص:٦٧.

وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» النَّجَف - بالتحريك - وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع سيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها، وبالقرب من هذا الموضع قبر (علي بن أبي طالب عليه السلام)، وقد ذكرته الشعراء في أشعارها.

كانت النجف قبل الإسلام متنزه (الحيرة)، بنى المناذرة قصورهم شاخة ليطلّوا منها عليها وعلى ما جاورها من بساتين ورياض وأنهار ثمّ ديارات، ومن أشهر تلك القصور (الخورنق) الّذي بناه (النعمان بن المنذر) وهو الّذي تغنى به الشعراء. قال (علي بن محمّد الحماني)[1]:

كم وقفة لك بالخورنـ ... ـقِ ما تُوازى بالمواقف
بين الغدير إلى السدير ... إلى ديارات الأساقف
بمنْ كأنّ رياضها ... يُكسينَ أعلامَ المطارف
وكأنّما غدرانُها ... فيها عُشورٌ في المصاحف
بحريةٌ شتواتُها ... برّيةٌ فيها المصايف

قال (ياقوت الحموي): الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له «النجف» زعموا أن بحر فارس كان يتصل به، وبالحيرة (الخورنق) بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، و«السدير» في وسط البريّة التي بينها وبين الشام. كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه[2].

وكانت منطقة النجف وما جاورها كثيرة الخصب، فقد ذكر أبو البقاء هبة الله الحلّي في كتاب «المناقب المزيدية» أن كسرى أقطع النعمان عدة قطائع بينها (طباق السالم) وانّها معروفة بأرض النجف في غرب فرات تستر، فكان خراج ذلك للنعمان في كل سنة مائة ألف درهم[3].

وبعد أنتشار المسيحية كثرت الأديرة في هذه المنطقة وكان السكان من النصارى النسطوريين. قال (الشابشتي) في مادة «دير سرجس» من كتاب (الديارات): «إنّه كان

---

(١) ديوان الحماني (علي بن محمّد العلوي الكوفي) تحقيق الدكتور محمّد حسين الأعرجي، دار صادر ـ بيروت ١٩٩٨م، ص:٨٥-٨٧، (ق٦٥).

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر ـ بيروت ١٩٨٦م، (مادة الحيرة): ج٢/ص٣٢٨.

(٣) المناقب المزيدية: ج٢/ص:٥٠١.

بـ(ظيزناباذ) وهذه تعد من أقدم مدن العرب الجاهلية في العراق، وكانت أرضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر . . . وكانت احدى البقاع المقصودة والنزه الموصوفة وقد خربت»[١].

وذكر (كوركيس عواد) أن أطلال مدينة (ظيزناباذ) التي كانت تضم هذا الدير تُعرف أطلالها اليوم بإسم (طعيريزات) وهي على نحو تسعة كيلومترات من شمال شرقي النجف[٢].

ومن أديرة هذه المنطقة: دير مارة مريم . قال (أبو الفرج الاصبهاني) في كتاب (الديارات)[٣]: هذا دير قديم من بناء آل المنذر، حسن الموضع بين الخورنق والسدير، وبين قصر أبي الخصيب، مشرف على النجف . وقد حدّده الثرواني (محمّد بن عبد الرحمن) فقال :

بمارة مريم الكبرى وظلٌ فنائها فقف
بقصر أبي الخصيب المشـ ـرف الموفي على النّجف
فأكناف الخورنق والسدير ملاعب المتلف
إلى النخل المكمّ والحمائم فوقه الهُتُف

وروى (الأصبهاني) عن رجاله عن إسحاق بن ابراهيم الموصلي أنه قال : «لما خرجتُ مع الواثق إلى النجف درنا بالحيرة ومررنا بدياراتها فرأيتُ دير مريم بالحيرة، فأعجبني موقعه وحسن بنائه، فقلتُ :

نعم المحلُّ لمن يسعى ديرُ لمريم فوق الظهر معمورُ
ظلّ ظليلٌ وماءٌ غير ذي أسنٍ وقاصراتٌ كأمثال الدُمى حورُ

فبقي الواثق وأمر بمال ففرّق على أهل ذلك الدير وأمر لي بجائزة[٤] .

ومنها دير اللّج : قال الاصبهاني : «بناه أبو قابوس النعمان بن المنذر أيام ملكه ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن منه بناءً ولا أنزه موضعاً، وكان النعمان يركب في كل (أحد) إليه،

---

(١) الديارات، هامش الصفحة:٢٣٣ .

(٢) الديارات للمشابشتي تحقيق كوركيس عواد. الطبعة الثالثة، دار الرائد العربي، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص:٢٣٣.

(٣) الديارات لأبي الفرج الاصبهاني، تحقيق الدكتور جليل العطية. دار الرياض الريس-لندن، قبرص١٩٩١م، ص:١٤١-١٤٣.

(٤) الديارات لأبي الفرج الاصبهاني، ص:١٤٣ .

وفي كل عيد ومعه أهل بيته، ومَن ينادمه من أهل دينه، وعليهم حلل الديباج المذهبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المفصّصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان، وإذا قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفة على النجف (ليتمموا لهوهم)، وكان ذلك أحسن منظر وأجمله»[1].

كان الشعر ديوان العرب، وكان كذلك في منطقة الحيرة(التي كانت على ثلاثة أميال من موضع الكوفة على بحيرة النجف، وعلى حدود البادية)، وقد برز شعراء لهم وزنهم الابداعي كعدي بن زيد العبادي وأبي داود، جارية بن الحجاج، الأبادي، اللّذين تأثروا بحياة الريف والمدينة فلانت لغتهما، ورقّت حاشية الشعر لديهما فكانا ممّن لاتُروى أشعارهما، لأنّ ألفاظهما ليست بنجدية[2].

ووفد على ملوك الحيرة كبار الشعراء فأنشدوا (عمرو بن هند اللخمي) وسواه، ونادموهم، وعاشوا في بلاطاتهم فعمرت بهم مجالس الشعر في الحيرة وضواحيها، ومَن يطالع كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني وغيره من كتب الأدب يجد أخبار وقصائد ومقطوعات النابغة الذبياني وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم ولقيط بن يعمر الأيادي، وأوس بن حجر والمثقّب وغيرهم ممّن خلّدوا الحيرة وملوكها وخلدتهم أشعارهم التي وصلت إلينا في دواوين خاصة بهم أو التي نجدها في كتب الأدب.

وعندما بزغ فجر الإسلام وانهارت الامبراطورية الفارسية أفلَت (الحيرة) وانبثقت على مقربة منها مدينة الكوفة التي بدأت كمعسكر لجيوش الفتح الإسلامي . خملت النجف والكوفة زمناً حتى رأى فيها خلفاء بني العباس منتجعاً، يلهون في الديارات المنتشرة فيهما، كما أسلفنا .

وبعد سقوط بغداد على أيدي المغول بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م قُسّم العراق إلى ستة أقسام أدارية، كانت النجف من نصيب أعمال (الحلة ـ الكوفة) تذكر المصادر التاريخية أن مؤسّسة نقابة الأشراف تولت حكم مدينة النجف وأعمالها دون تدخل من السلطة المركزية المحتلة[3] . كان نقيب الأشراف يجمع بين يديه السلطة الادارية بوصفه يمثل السلطة المركزية،

---

(١) الديارات لأبي الفرج الاصبهاني، ص:١٣٩-١٤٠.

(٢) انظر: حركة الشعر في النجف الأشرف وأطواره خلال القرن الرابع عشر الهجري، للدكتور عبد الصاحب الموسوي، دار الزهراء ـ بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص:٣٠ـ٣٣ .

(٣) للتفاصيل انظر: الأسر الحاكمة ورجال الادارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة ٦٥٦هـ/١٣٣٧م، د.عماد عبد السلام رؤوف، بغداد ١٩٩٢م، ص: ٣٢٧-٣٣٨ .

وإليه حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه، وكان يتولى ادارة الحاج، وبلغ من أهمية هذه المؤسّسة أن أضيف إلى بعض نقبائها «صدارة البلاد الحلّية والكوفية» وهو منصب إداري مالي يشمل منطقة الفرات الأوسط بأسرها والقضاء فيها أيضاً .

لقد تولّت مؤسّسة نقابة الأشراف على نحو متعاقب عشر أُسر حسنية وحُسينية[1] وكانت السلطة المركزية تكتفي عند تولي واحد منها النقابة بالمصادقة على ذلك بارسال «اليرليغ» أي مرسوم التولية والخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق كما يقول (ابن بطوطة) الّذي زار النجف وسجّل ما شاهده وسمعه في رحلته الشهيرة .

ومن بين أسر النقباء الّذين تولوا حكم النجف في تلك الفترة السادة :

١- آل طاووس
٢- آل عبد الحميد
٣- آل كتيلة
٤- الأبهريون
٥- بنو الحسين بن مهنا
٦- الآويون
٧- الأفطسيون
٨- آل جمّاز
٩- آل الصوفي

وعندما قامت الدولة العثمانية أقرّت السلطات الموروثة لنقباء الأشراف في النجف . كانت هذه السلطات تشمل، فضلاً عن النقابة نفسها «الامرة -أي إدارة الحاج- وحكومة البلد» وكان السادة (آل كمونة) يتولون السلطة في النجف منذ عهد طويل . والكمونيون أسرة شريفة يرقى نسبها إلى عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام .

أقرّ العثمانيون حكم هذه الأسرة، وكانت (إمارة الحاج) تستدعي الاحتفاظ بقوة عسكرية كافية لحماية الحجّاج من مخاطر الطريق . انحصرت النقابة طيلة العهد العثماني الأول تقريباً بأحد فرعي أسرة (آل كمونة) بينما كان يتولاها، في العهود السابقة الفرع الآخر .

وفي القرن الحادي عشر الهجري تولى (بهاء الدين الآوي الأفطسي) نقابة النجف وحكومتها وكانت تلك أول محاولة لنقل السلطة في المدينة إلى أُسر حسينية أخرى، سبق أن تولتها في عهود ماضية، وكان أحتفاظ الأسرة الكمونية بزعامة النجف قد لقي اعتراضات ما.

(١) المرجع السابق ص: ٣٣٩.

وظهرت أُسر أخرى كانت تملك من النفوذ السياسي والاجتماعي ما يؤهلها لتولي هذه الزعامة المحلية . وقد أورد (الشيخ جعفر محبوبة) في كتابه «ماضي النجف وحاضرها» أسماء عدد من نقباء النجف في هذه الفترة، على أن الملاحظ أن «حكومة البلد» لم تعد من بين سلطاتها فقد انتقلت منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري إلى سَدَنة مرقد الإمام علي عليه السلام من الملالي (جمع ملا) . والسدانة من الوظائف المهمة في النجف، يتولى القائم بها إدارة شؤون حرم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت تُعقد سابقاً لنقيب الأشراف نفسه، وهي تدر دخلاً لما تفرضه من رسوم وما يقدم لها من هبات. وآل الملا أسرة تنحدر من قبيلة (عنزة) النجدية، وكان تسلّم هذه الأسرة السدانة يؤكد خضوع المدينة خلال تلك الحقبة لقوة القبائل المجاورة . واستند (الملالي) في نفوذهم أيضاً إلى قوة اقتصادية تتمثل في ملكيتهم الواسعة لعدد من الواحات الزراعية التي تحيط بالنجف .

وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، عُهد إلى اولئك السدنة بـ«حكومة البلد» فاجتمعت في أيديهم مقاليد السلطة كلها . وفي هذا العهد نمت النجف بفضل مرجعيتها الدينية فتوافد إليها الألوف من طلاّب العلوم الدينية والزوّار، وباتساع الرقعة الزراعية قربها إثر افتتاح قناة «الهندية» الآخذة من الفرات، فعاشوا وسط مظاهر حكومة حقيقية . كان قانون الوائة، ومواصفات الزعامة ينظّمان انتقال السلطة بينهم، إلاّ ان المصادقة على توليتهم كانت من اختصاص ولاة بغداد وحدهم .

وأدى نمو النجف وتزايد قاصدي العتبات فيها إلى تضخّم ثروة «الملالي» وهذا أدى لاحقاً إلى أنهيار حكمهم، فقد ألّف طلبة العلوم الدينية بالتعاون مع الحرفيين ما يشبه أن يكون حزباً أخذ بفرض كلمته على المدينة . عُرف باسم جماعة «الزقرت» وفي المقابل نشأ ما يعرف بجماعة «الشمرت». أدى هذا الوضع إلى انفجار النجف ضد (الملالي) الّذين حاولوا استعادة نفوذهم، وبالفعل نجحوا في ذلك. إلاّ أنهم اضطروا إزاء المعارضة المتنامية في الداخل، وفقد تأييد ولاة بغداد بعد انتهاء حكم المماليك،إلى التنازل عن السلطة وترك النجف بصفة نهائية . بعد انتهاء حكم السَدَنة من (آل الملا) أُعيد ضمّ السدانة إلى نقابة الأشراف، وتولاها (آل الرفيعي) احدى الأسر العلوية في النجف والتي يرقى تاريخ استقرارها في المدينة إلى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وفقاً لتقاليد النقابة القديمة، فقد تولى (الرفيعيون) حكم النجف بصورة فعلية تعاونهم في ذلك المرجعية الدينية .إلاّ انّ هذه التقاليد اصطدمت منذ سنة ١٢٨٦هـ-١٨٦٩م بتطبيق قانون الولايات العثماني، الّذي عُدّت المدينة

ـ بموجبه- مركزاً لقضاء باسمها، يُديره قائمقامون تعيّنهم الأدارة العثمانية في بغداد، وعلى الرغم من هذا التنظيم، فقد لبثت زعامة المدينة الداخلية بيد النقابة ـالسدانة- .

وفي عهد (السلطان عبد الحميد الثاني) أُخرجت النقابة من الأسرة، فانفصل المنصبان عن بعضهما، وعند تأسيس الحكومة العراقية سنة ١٩٢١م أنيطت النقابة بالأسرة مرة أخرى .

وبموجب التشكيلات الأدارية الأخيرة عدّت النجف قضاء تابعاً للواء كربلاء، ورُبطت بها ناحيتان هما: الكوفة والرحبة ثمّ ضمت إليها سنة ١٣١٧هـ ناحية (هور الدخن) (الرحالية) وكانت تابعة من قبل لقضاء الديلم (محافظة الأنبار) لاحقاً .

كان أقدم (قائمقام) في العهد العثماني تولى إدارة النجف يُدعى (عارف أفندي) وذلك سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م . أما آخر إداري عثماني فكان (أمين بك) وقد ترك النجف سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٨م . وفي أوائل السبعينات تحولت النجف الأشرف إلى محافظة بعد حذف كلمة الأشرف منها .

كان لوجود الصدارة الدينية في النجف فضل في ازدهار الحركة العلمية والأدبية واتساع عدد الباحثين والدارسين فيها، ورواج سوق الشعر وفنون الأدب المعروفة، كما يقرّر (د. عبد الصاحب حسين الموسوي) في دراسته المتميزة عن (حركة الشعر في النجف)[1] فإنّ هذه الصدارة كانت تملك من قوة الجذب والقدرة على تحريك الفكر العلمي المبدع، ما كانت تملكه مراكز الخلافة أو الولاية في الحواضر الإسلامية الأخرى . ولقد أصبحت الحوزة العلمية في النجف ملتقى ثقافات إسلامية متعددة ومحفل أفكار شعوب متباعدة دعاها الوازع الديني من كل حدب وصوب، وفتحت النجف ـمدينة العلم- أبوابها، وضمّت إلى صدرها من شعوب الأرض أبناء أحبتهم فأولتهم رعايتها، علماً وأدباً وطرائق حياة؛ لم يمض على الطلاّب من عرب وأعاجم وقت طويل في النجف حتى أنطلقت ألسنتهم وحلّقت أفكارهم في دنيا المعارف، بل لقد برز منهم شعراء مجيدون، وكتّاب مقتدرون ومدرسون لامعون، فمضوا في الطريق الّذي سبقهم إليه (مهيار الديلمي) وأمثاله، وكان للاحتفالات الدينية العامة أثر واضح في مسار نموج البيئة الأدبية ونموها في النجف . كانت تلك الاحتفالات الدينية صورة موسعة لمجالس الوعظ والارشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي كانت تُعقد في المساجد منذ شروق فجر الإسلام . وكانت المتنفس الوحيد للأمة في النجف وحدها بل في أنحاء العراق .

ونهضت في النجف حركة أدبية متميزة، يرى (جعفر الخليلي) أن العامل الاجتماعي له الأثر الأقوى في أزدهارها و بينما يعتقد (د. عبد الصاحب الموسوي) أنّ العامل الديني كان له

---

(١) حركة الشعر في النجف، التمهيد، ص:٢٩ـ٥٢ .

الأثر الأهم فيه (فكان واجباً على متحمليها من رجال الفقه والدين) أن يتمرسوا بعلوم اللغة وآدابها فذلك دليلهم إلى الهدف الأسمى والغرض الأسمى الذي يبتغون . وكما كانت مدرستا الكوفة والبصرة حتى القرن الخامس الهجري تستقلان تقريباً بزعامة علوم اللغة وآدابها -خدمة لعلوم القرآن وما تفرّع عنه من أغصان- جاءت النجف لتحتل مكانة الصدارة العلمية في العراق، حين تهيأت لها أسباب تلك الصدارة[1] .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري أخذ اهتمام أساتذة النجف بطلبتهم يتجه إلى مزيد من المنهجية والضبط ليكون الطالب أكثر عطاء، فأجريت على الطلاّب رواتب شهرية بعضها نقدي وبعضها عيني كالخبز والملابس . وأحصيت المدارس التي كانت قائمة سنة ١٣٨٥هـ فكانت اثنتين وثلاثين مدرسة فيها اثنتان وخمسون وتسعمائة غرفة. أما عدد الطلاّب فكان يقدّر في ذلك الوقت بثلاثة آلاف طالب من الوافدين وأهل البلاد .

وتشتهر النجف بمكتبات عامة وخاصة تضم أحدث ما يصدر في الوطن العربي بينها أهم المجلات والدوريات وكانت المكتبة العلوية أول مكتبة عامة انشئت في النجف في القرن الرابع الهجري.وأحصى (جعفر الخليلي) في «موسوعة العتبات المقدسة»[2] أكثر من ثلاثين مكتبة كان لها شأن يذكر حتى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر للهجرة، وقد بكرت هذه المدينة في نهضة العراق الحديث فقد أسّست فيها مطبعة سنة ١٨٥٦م، وفي مطابعها طبعت رحلات أبي الثناء الآلوسي الكبير (١٢٧٠هـ) ويسّرت المطابع تطور حركة الأدب والعلم فصدرت منها في مطلع القرن الرابع عشر الهجري مجلة «العلم» لمؤسّسها السيّد هبة الدين الشهرستاني وبلغ مجموع المجلات التي صدرت خلال القرن نفسه تسعاً وعشرين مجلة كان من أشهرها : الاعتدال، الغري، البيان . وشهد القرن الرابع عشر نشوء الجمعيات الأدبية على شكل جمعيات أشهرها جمعية الرابطة العلمية الأدبية وجمعية منتدى النشر .

وأهل النجف على اختلاف فئاتهم الاجتماعية قريبون من الشعر يسمعونه دائماً ويتغنون به أبداً. يتساوى في ذلك عامتهم وخاصتهم في حدود الفوارق، يذكر (جعفر الخليلي) أنّ أحد النجفيين أحيل مرة لأداء الامتحان في دار المعلمين لتعيينه معلماً فسأله العلاّمة المرحوم

---

(١) الجواهري شاعر القرن العشرين، د.جليل العطية، منشورات الجمل، كولن ــ ألمانيا ١٩٩٨م، ص:٢٩-٣١.

(٢) موسوعة العتبات المقدسة لجعفر الخليلي: منشورات الأعلمي ــ بيروت، الجزء السابع (قسم النجف «الثاني»).

(طه الراوي) عن المستثنى بإلاّ فلم يجب، فقال له الراوي : والله لو وجهتُ هذا لبقال من بقالي النجف لأجاب عليه ! .

وأورد الرحالة اللبناني الشهير (أمين الريحاني) ما يؤكد هذه الحقيقة . وسرد (د. عبد الصاحب الموسوي)[1] أسماء اثنين من بقالي النجف هما الأديب عبد الهادي الطعان والحاج مجيد العطار . وساهمت المجالس التي تعقدها الأسر العلمية الكبيرة في النجف في تنمية الحركة الأدبية، ومن أشهر رجال تلك المجالس في مطلع القرن العشرين أكابر الأدباء أمثال السادة والشيوخ : محمّد سعيد الحبوبي، جواد الشبيبي، جعفر الحلّي، علي العلاق، عبد الحسين الحلّي، باقر الهندي .

وفي هذه الفترة لمع عدد من الشعراء الّذين عبّروا عن واقع المجتمع العراقي وتطلعاته الوطنية والقومية وكان لهؤلاء أكبر الأثر في حركة الشعر العربي المعاصر ومن هؤلاء الشيوخ والسادة: محمّد رضا الشبيبي، علي الشرقي، محمّد مهدي الجواهري، محمّد باقر الشبيبي، صالح الجعفري، أحمد الصافي النجفي، محمود الحبوبي . ثمّ تابعهم في وقت لاحق آخرون بينهم السادة والشيوخ : محمّد علي اليعقوبي، مصطفى جمال الدين، أحمد الوائلي .

روى أبن عساكر عن رجاله عن محمّد بن مسلم قال : سألت جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام عن قوله عزّوجلّ ﴿وجعلنا ابنَ مريم وأمّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين﴾[2] قال عليه السلام: «الربوة: النجف، والقرار : المسجد، والمعين : الفرات» . ثم قال: «أنّ نفقة بالكوفة الدرهم الواحد يعدل بمائة درهم في غيرها، والركعة بمائة ركعة، ومَن أحبّ أن يتوضأ بماء الجنّة، ويشرب من ماء الجنّة، ويغتسل بماء الجنّة فعليه بماء الفرات، فإنّ فيه متعبين (المتعب : الوطاب المملوءة) من الجنّة، وينزل من الجنّة كل ليلة مثقالان من مسك في الفرات، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يأتي النجف ويقول : وادي السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، ونعم المضجع للمؤمن هذا المكان . وكان يقول :اللّهمّ اجعل قبري بها»[3] .

وقد استجاب الله لدعائه فجعل قبره فيها وكان لهذا القبر الأثر في تمدن النجف فأضحى نواة حضرية لهذه المدينة التي تعد اليوم رابع مدن العراق من حيث الكثافة السكانية . ويرجع تاريخ المدينة إلى سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م عندما أوعز (هارون الرشيد ابن المهدي) ببناء قبة

---

(١) حركة الشعر في النجف، ص:١١٥ .

(٢) سورة المؤمنون، الآية:٥٠ .

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن منظور: ج ١/ ص:٨٩.

على قبر الإمام علي عليه السلام منذ اختار جماعة من العلويين وأتباعهم دور إقامتهم بالقرب من الضريح المقدس، ثم قصدها رجال الدين والتجار وأفراد العشائر فنمت، ومما زاد في أهميتها وقوعها على طريق القوافل القديمة بين العراق والشام وعلى حافة الصحراء بين المناطق الرعوية والزراعية .

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي نالت النجف العناية التامة من البويهيين الذين تغلبوا على الملك في عهد الدولة العباسية، وتولى عضد الدولة (فناخسرو بن الحسن الديلمي) بناء مشهد قبر الإمام علي عليه السلام وأقام مأتم عاشوراء، وعندما توفي سنة ٣٧٢هـ-٩٨٣م دفن في النجف[١] .

وتعد سنة ٤٤٨هـ نقطة مهمة في تاريخ النجف الديني والفكري ففيها وصل إلى النجف قادماً من بغداد (أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي) (٣٨٥-٤٦٠هـ) وذلك إثر فتنة طائفية أسفرت عن احراق دار الشيخ الطوسي وكتبه ومؤلفاته التي ألفها في بغداد . ويُعتبر الطوسي المؤسس لجامعة النجف العلمية وباني صرحها الشامخ، وجامع الحوزة العلمية منذ منتصف القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا .

فلقد توافد على النجف طلبة العلوم الدينية من أنحاء العالم الإسلامي، وبلغ عدد حاضري مجلس (الشيخ الطوسي) في النجف ما يزيد على ثلاثمائة من العلماء المجتهدين، وتأصلت الحركة العلمية في هذه المدينة خلال فترة زمنية قصيرة لاتتجاوز العشر سنوات[٢].

وفي أوائل القرن السابع الهجري انتقلت الحركة العلمية إلى الحلّة حيث برز فيها المحقّق الحلّي (جعفر بن الحسن) المتوفى سنة ٦٧٦هـ والّذي تابع جهود ابن ادريس، واستمر التأجج العلمي ينير آفاق مدينة ابن ادريس (الحلّة) طوال قرون ثلاثة، ودام حتّى أواخر القرن العاشر الهجري، فقد عادت المركزية العلمية إلى النجف، وبقيت الحلّة حركة علمية بسيطة مفتقرة إلى شيء من الدفع والتوسع[٣].

على ان انتقال المركز العلمي من النجف إلى الحلّة لايعني خلو النجف من حركة العلم ومن الأدلة على ذلك شهادة الرحالة (ابن بطوطة) الّذي زار المدينة سنة ٧٢٧هـ وتحدّث عن مدارسها التي وصفها بالعظمة وكذلك عن استمرار بناء المدارس وتأليف الكتب .

---

(١) انظر: الكتب التاريخية المعتمدة، حوادث سنة ٣٧٢هـ.

(٢) انظر: الدراسة وتاريخها في النجف للدكتور السيّد محمّد بحر العلوم ضمن (موسوعة العتبات المقدسة)، ج٧/ص:٩-١١٢.

(٣) المرجع السابق .

لقد تميّزت الحوزة الدينية الشيعية بنمط من الفقهاء يتشابهون في عطائهم الفكري وتوجهاتهم السياسية أو المحايدة، وان تباعدت فواصل الزمن بينهم، ويرى (د.جودت القزويني) في بحث قيّم له[1] انّ تقريب أوجه التشابه بين فقهاء الإمامية لايعني بالضرورة المطابقة التامة بينهم في جميع الاتجاهات، وعلى ذلك يمكن ايضاح دور فقيه في فترة زمنية محدّدة مع دور فقيه آخر في فترة أخرى من خلال:

١. المنحى التوفيقي ويمثل هذا الاتجاه: الطوسي، المحقّق الحلّي، أبو القاسم الخوئي، حيث يتميز هؤلاء الفقهاء بمنهج التوازن العلمي .

٢. منحى تأييد الفقيه للسلطان ويمثل هذا الاتجاه الفقيهان : نور الدين علي المعروف بالمحقّق الكركي (ت٩٤٠هـ-١٥٣٣م)، وجعفر كاشف الغطاء (ت١٢٢٨هـ-١٨١٣م) .

٣. المنحى المذهبي والمنحى السياسي ويجسد هذا الاتجاه : يوسف بن المطهر الحلّي (ت٧٢٦هـ-١٣٢٥م) ومهدي القزويني (ت١٣٠٠هـ-١٨٨٣م) وروح الله الخميني (ت١٤١٠هـ-١٩٨٩م) .

٤. منحى الشهادة ويجسده : الشهيد الأول محمّد بن مكي العاملي (ت٧٨٦هـ-١٣٨٤م) والشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي (ت٩٦٥هـ-١٥٥٧م) والشهيد الثالث السيّد محمّد باقر الصدر (ت١٤٠٠هـ-١٩٨٠م) والشهيد الرابع السيّد محمّد صدق الصدر (ت١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) .

ويُمتاز هؤلاء العلماء بغزارة التأليف والانتاج الفكري والتجديد في الدرس الفقهي وبالشهادة في سبيل الله والأمة .

وصفوة القول انّ مدينة النجف التي تعيش منذ أكثر من عقدين من الزمن محنة قاسية، لم تتورع خلالها السلطة المتحكمة في رقاب العراق والعراقيين من تصفية رموز الحوزة العلمية فيها تصفية جسدية، تظل هذه المدينة محط أمال المسلمين، تحرسها عناية السماء، وروح أمير المؤمنين عليه السلام .

---

(١) الحوزة الدينية الشيعية : الاتجاهات الأربع التي حكمت فقهاءها : مجلة النور، العدد ٨٧، آب ١٩٩٨م، ص:٥٢-٥٣ .